

نظرة لمعركة عين جالوت

وقتل فائر النار كتبها في ٢٥ رمضان ٦٥٨ هجرية

للأستاذ أحمد رمزي

—♦♦♦—

[ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أنزع عنا هذا صبياً
ونبت أنداماً وانصربنا على القوم السكارين] قرآن كريم

قلت مرة لصاحب من إخواننا الذين يغلب عليهم التشاؤم
إن في الكون قوات طبيعية هائلة لا تلبث أن تصيب الرجل
الذي اختارته العناية لعمل عظيم ، فستفيق من غشيته متنبهاً
يقبض على تلك القوى الضائعة ويجمعها ويوحدها ويحركها
يقودها ببصيرته وعزمته وجرأته ، ليفير معالم الأشياء فيخلق
من الجمود حركة ومن الخلود حياة ومن التسليم أملاً ، ويحول
بحري التاريخ ليكتبه كما يشاء . هؤلاء الرجال الأفذاذ كثيرون

ين تعبر عن أشباه هذه الأسباب .

فالدواعي التي تلجئ المشرع إلى إباحة تعدد الزوجات عند
الضرورة التي تسوغه أخطر جداً من هذه الموانع التي تساق لحظره
على النحو الذي أجملتنا فيما تقدم . فهذه الزوجة التي يخشى عليها
لكاتب الأخير من وساوس الفيرة هل يظنها تنجو من هذه
لوساوس إذا كانت السهرة التي يغيب فيها زوجها قد انقضت في
الحانة أو الماخور أو في الأندية التي لا فرق بينها وبين الحانات
والمواخير ؟ أو هل تنجو من هذه الوسوس إذا كانت السهرة
مع زوجة رجل آخر يخونها في تلك الساعة كما تخونه لأنهم جميعاً
لا يستسلمون الطلاق ؟

إن الذين يبيحون تعدد الزوجات لا يبيحونه لأنه حسنة
مشتهة ولا لأنهم يفضلونه على الاكتفاء بالزوجة الواحدة متى
تحت شروط الوفاق والعشرة الدائمة بين الزوجين ، ولكنهم
يبيحونه لأن السيئات التي تبيحها الحضارة أبنض منه وأولى
بالحاربة والانسكار ، ويعلمون أن كرامة الزوجة التي تشاركها في
رجلها زوجة أخرى أمر وأوفر من كرامة الخلية التي يمتزج بها

في تاريخ الإسلام ، كانوا كالصخور الصلبة التي تواجه السيول ،
وكانوا كالسدود الضخمة التي تحول مسير المياه إلى جهات ونواح
غير التي كانت تقصدها بدفعتها الأولى .

« وأعرف في تاريخ مصر العربية معارك كثيرة ومواقف
خالدة كانت كالسدود العالية تصد حوادث الزمن وتقاوم نكبات
الدهر لتتغلب عليها : ولكني أعرف منها مراكب كثيرة ومواقف
يجب أن يعرفها كل واحد منا لأنها مفعرة لنا ولآبائنا ولأجدادنا ،
وقمت كل منهما في أرض فلسطين الشهيدة ، في الجزء الشمالي
منها أي على مقربة من بحيرة طبرية ، تلك البحيرة التي أعدها
وماحولها بقعة من أجل بقاع الأرض ، أما أولى المراكب فهي
معركة حطين ، وأما الأخرى فهي معركة عين جالوت . كان بطل
الأولى سلطاناً صلاح الدين وكان صاحب الأخرى سلطاناً الشهيد
الظفر قطز ، ففي الأولى تحطم ملك أورشليم وفي الأخرى تحطمت
أطماع هولاء كوك في فتح مصر ، وفي الأولى ظهرت مزايا جند مصر
وعسكرها على فرسان أوروبا ، وفي الأخرى انتهت خرافة المهد

المجتمعات الأوربية والإمبريكية ولا تحسب لها حساباً في الشرائع
والقوانين غير حساب التهاون والاعضاء .

ولعل هذه الأجوبة التي قدمناها لا تشتمل على جواب هو
أولى بالتدبر وإطالة الروية من جواب الفتاة التي قالت إن النساء
لا يرفضن المشاركة في الرجل الوسيم القسيم وإنهن إذا لظنن بمحدث
هذا الزواج فأغلب الظن أنهن يلظنن من الفيرة لا من الإنكار .
فهذه فتاة من بنات العصر الحديث في القارة الأمريكية
موطن الحرية النسائية التي جاوزت جميع الحدود ، كشفت عن
دخيلة شعورها فإذا هو يتم على حقيقة المانع النفساني الذي يمنح
بالمرأة إلى التأفف من المشاركة في الميثة الزوجية ، وإذا هو
مسألة استحسان للزوج الذي يستحق هذه المشاركة لا مسألة
كرامة أو مسألة من مسائل العقيدة والروح .

ونحسب أن الأجوبة الصريحة التي من هذا القبيل أجدى
من الفصول النعقة والمباحث المتعمقة في الإيالة عن مركز المرأة
الصحيح من مسائل الزواج والطلاق .

عباسي محمود الغفار

ولما بلغه خروج المشاكر المصرية حار في أمره ماذا يفعل ولكر
حملته نفسه الأبيسة على اللقاء، وظن أنه منصور على جاري عادته
فخل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبتهم في
المركة « وجاء النصر من عنده تعالى .

وحجى بالأسرى وبينهم ابن القائد العظيم فأخذ الملك المظفر
قطز وسأله : « أهرب أبوك » . فأجاب : « إن مثله لا يهرب »
وعرضت القنبل فتعرف الابن على أبيه وصرخ باكياً ، فلم الظف
بعونه وسجد لله شكراً مرة أخرى .

وكان المغول يؤمنون بمقبرة كتبنا ويستبشرون به خيراً
إذ هو الذي أخضع البلاد لهم من حدود فارس الشرقية إلى حدود
الشام ، ولما قتل ذهب سعدم ، وألف قوادهم المزعجة وأعتا
رجالهم الفرار . وكانوا يمتدنون بالتنجيم والعرافة ، ذكر
ابن الفرات في تاريخه أن هولاء كوكبهم لما دانت له الدنيا
بفتح بغداد واستيلائه على العراق وحلب وامتلاكه دمشق
حدثت نفسه أن يقهر الديار المصرية ويفتحها ويطأها بمجده .

قال : إنه أحضر نصير الدين الطوسي وقال له « اكتب
أسماء مقدمي الجند وانظر أيهم سيملك مصر وجلس على تحز
السلطنة » فكتب أسماءهم وحسب ودق النظر فما ظهر له أن
يملك مصر غير رجل اسمه كتبنا فذكر ذلك لهؤلاء وكانوا
صهرو كتبنا نوبن فسلمه قيادة جنده وسيره لفتح مصر وكار
مقتله في عين جالوت « بعد أن أدرك أيام جنكيزخان وحارب تحز
قيادته وقاد جحافلهم إلى النصر طول أيام هولاء كوكب .

وإني لأتحيل كتبنا هذا على صورة « ناراس بوليا » في
القصة الروسية رجلاً جباراً عملاقاً مهيب الطلعة يلبس البنطال
التري وقد استبدل بالشاربين الطويلين النحدرين على كتفيه
باللحية الطويلة التي وصفها الشيخ قطب الدين والتي كان يملق
على أذنيه لإرهاب الناس وقذف الرعب في قلوبهم .

ومن الغريب أن يكون بين عسكر المغول فتى لا يكاد يدرك
سن البلوغ واسمه كتبنا أيضاً فيؤخذ أسيراً ويربى بقلمه معه
ويطلق عليه اسم زين الدين ، ثم يؤمر في عهد النصورقلاوون ،
يستتر في نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وأخيراً ينادى به سلطاناً
فتصح النبوءة المذكورة بعد ست وثلاثين سنة من معركة عين

من أن جيش المغول لا يقرب ، فقلب وهزم ونشئت شمله ، وظهر
أن الدماء التي تجري في عروق الآباء والأجداد ، أقوى وأمتن
وأثبت من الدماء التي تجري في عروق فرسان أوروبا وزمائمها
من الاستتار^(١) والداوية ، وعلم الناس والعالم بأكله والأجيال
الساففة واللاحقة أن صلاح الدين وقطرهما من رجال الله .

فاذا فتحت خريطة لفلسطين الشقيقة ، فابحث عن ييسان ،
تجدها تحت جسر المجمع جنوبى بحيرة طبرية وتطل على
وادي نهر الأردن ، وعلى اليسار وادي جالوت حيث كانت تقع
بليدة باسم عين جالوت ، ففي هذه الناحية ومنذ سبعمائة وسبع
سنوات ، التقى جيش مصر بقيادة سلطانها الملك المظفر قطز مع
جيوش المغول ودارت بينهما معركة هائلة فاصلة ، وكان مجي
المغول من الشمال حيث أراضى البقاع الحصبة — بقاع العزيزى
الشهيرة — وهى الواقعة الآن داخل حدود الجمهورية اللبنانية .
وكان مجي جيش مصر من القاهرة إلى الصالحية إلى غزة إلى الرملة
ثم عكاً ثم إلى المصاف بعين جالوت .

ولما التقى الجمعان كتب الله النصر للمسلمين فسجد ملك مصر
المظفر قطز شكراً لله ومرتج وجهه في تراب الأرض ، أما قائد
المغول فكان اسمه كتبنا نوبن ، وقد قتله بطمعة واحدة أمير من
أمراء مصر هو جمال الدين أقوش التمسى . وكتبنا اسم تترى
مركب من كلمتين قيل إن معناه الثور الذى يدهشك أو يدعو
للدهشة أو يثير الإعجاب ، وكان أولى أن يسمى بالثور الهائج .
ونوبن قيل في معناه قائد العشرة آلاف ؛ وجندهم كما نعلم تتحرك
بالآلاف وعشراتهما .

وصنه الشيخ قطب الدين اليونينى فقال « رأيت يملكك
حين حاصر قلمتها وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد
ضفرها مثل الدبوق ، يملقها من خلفه بأذنه ، وكان مهيباً شديد
السلطة » دخل الجامع^(٢) ، وصعد المنارة ليتأمل القلمة ومن فيها
من جنود الإسلام ، قال : « خرج من الباب الغربى ودخل دكاناً
خرباً وقضى أمراً والناس ينظرون إليه » ثم أردف ذلك بقوله :

(١) الاستتار Hospitalliers والداوية أو الهيكليون Templiers وم

مظاہر سليبية لقتال المسلمين .

(٢) هذا الجامع البليكى للأسف خرب اليوم وإن كانت أعمدة

بانية كأم .

الحرب الخاطفة والمهجوم في جهتين تفصل الواحدة عن الأخرى مئات الأميال لتبين لنا أن آسيا هي أم الحروب وأن الأوروبيين لم يبتدعوا شيئاً جديداً . ولقد أجمع المؤرخون على مقتل كتبنا في عين جالوت ، وذكر القرظي أن رأسه نُحِل إلى القاهرة ، ولذلك تمجبت حين اطلعت على حاشية للاستاذ الدكتور مصطفى زبادة تقول « إن السلطان كتبنا كان تترى الأصل وهو الذي قاد الجيوش الثرية التي انكسرت على يد السلطان قطز » . إذ هناك إجماع على مقتل قائد التتار وعلى اسم قاتله وهو الأمير جمال الدين الشمسي وكان من أعيان الأمراء المصريين وأماثلهم وشجعانهم ، ذكره صاحب النجوم الزاهرة في النهل الصافي ضمن وفيات ٦٧٨ وذكره ابن كثير ضمن وفيات هذه السنة فقال « إنه أحد أمراء الاسلام وهو الذي باشر قتل كتبنا نون » . أما القرظي فيقرر وفاة الشمسي سنة ٦٧٩ وهو الأصح إذ كان آخر عمل له أنه تولى نيابة السلطنة المصرية بمدينة حلب عن السلطان المنصور فلاوون وتوفي ودفن بها كما جاء ذلك في أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، وكان قبل ذلك نائباً لسلطان مصر بمدينة دمشق وهو الذي قبض بها على الأمير عز الدين إيدمر الظاهري حينما توقف عن البيعة المنصور فلاوون ، وبدل تاريخه على الهيبة ووفرة الحرمة والوقار والنفوذ التي كان يتمتع بها لدى ملوك مصر نظراً لأباده البيضاء في معركة عين جالوت وأن هذه الهيبة كان يتمتع بها حتى مماليكه بالقاهرة وهو غائب عنها لما كان أميراً بالشام . فقد قبض الملك الظاهر بيبرس على عدة من أمراء مصر بدمشق ولما وصل إلى جمال الدين الشمسي لم يجسر أن يقبض عليه بل تركه على حاله ومات رحمه الله في الحسين من عمره .

فلا عمل إذاً لكي تختلط شخصية كتبنا نون مع العادل زين الدين كتبنا وإن تشابهها في الإسم . وقد ورد في السلوك أنه في سنة ٦٧٨ أنتم المنصور فلاوون على أربعين من رجاله فرفعهم إلى مرتبة الأمراء وذكرهم واحداً واحداً بالإسم ، وكان منهم زين الدين كتبنا وسنجر الشجاع وأغلب المؤرخين يقررون أنه أخذ أسيراً في عين جالوت وهو شاب وإن كان البعض اشتبه عليه نسبته إلى المنصور بقوله المنصوري فظن أنه أخذ أسيراً من يوم معركة حمص (رجب ٦٧٨) فيكون بين أخذه أسيراً وتعيينه

جالوت التي أخذ فيها من بين الأسرى .

ويصح أن نشير هنا إلى ما ابتدعه المنول في فن الحروب وما أدخلوه من التغيير في كيفية ترتيب الجنود والزحف وتسوية الصفوف لأنه ابتداء من جينكيزخان . انجبه هؤلاء إلى ضبط الزحف بعشرات الآلاف من الرجال وإلى توجيه ضربات حاسمة من عدة جهات بطرق وأساليب لم تخاطر على بال هنديال ولا الاسكندر الأكبر وغيرهما من كبار قواد العالم . وهذا ما سنعرض له إن شاء الله في دراسة حملات جنجيز وأولاده وأثرها في التربية العسكرية بمصر وفي عقلية كبار قواد الدولة المصرية وملوكها وما أخذوه من الأنظمة عنها ، ولا أترك هذا دون أن أعطي فكرة أولى عما ابتدعه كتبنا نون من أساليب الحروب وخداعها لأنه من تلاميذ مدرسة جنكيزخان في هذه الناحية .

فقد نقل صاحب البداية والنهاية أنه كان يعتمد في حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها ، فكان إذا فتح بلاداً ساق مقاتله هذا البلد إلى البلد الذي يليه ، فكان هؤلاء اللاجئون يدخلون في هروبهم الخوف والرعب على الناس . وإذا دخلوا البلد شاركوا الناس في أفواتهم ، فإذا حاصرهم تقصر مدة الحصار عليه لاضطراب شؤون التموين والاعاشة لدى البلد الذي يقصده ، وإذا رفض أهل البلد قبولهم وإيواءهم ساق هؤلاء المقاتلة اللاجئين عليهم لقتالهم وتلقى الضربات الأولى ، وحينما يضعف الطرفان يقذف بمنوده لاتمام الفتح . ومن حيله التي لا يمكن أن تقرأها قوانين الحرب أن يبعث إلى المدينة المحاصرة من يقول : إن ماءكم قد قلَّ بعد طول الحصار وإثنا على وشك أن نأخذكم عنوة فنقتلكم جميعاً ، أما إذا فتحت مسلحاً أبقينا عليكم فيفتت أهلها بذلك ويقولون إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء فيقول الرسول لا أصدق حتى أبعث من عندي من يشرف عليه فإن اقتنمت بأنه كثير انصرفت إلى بلد آخر . فيقولون أبعث من يتأكد ، فيرسل رجال من جيشه معهم رماح مجوقة محشوة سما ، فإذا دخلوا المدينة التي أعيتهم الحيل في فتحها لعظم أسوارها وقلاعها أدخلوا في آبارها وصهاريجها تلك الرماح على أنهم يقيسون أعماق المياه فيقذفون السم في قاع المياه ويكون سبباً في هلاك كل من يشرب منه .

ولو شئنا أن نعدد أساليبهم في القتال وطريقتهم في ابتداء